



قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552



الديناميات الترابية بالأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف (الشمال الغربي التونسي)

Territorial Dynamics in the Southwestern countryside of El Kef Province (Northwest Tunisia)

راضية عمري^{*1}
¹ اعدادية مفيدة بورقيبة بالمنستير تونس.

Key words:

Dynamism
Territorial
Countryside
Kef Province
Interaction
System.

Abstract

This article represents an attempt to investigate the territorial dynamics in the countryside of El Kef, starting from the southwestern countryside of this governorate. This article tends to highlight the main factors in these dynamics and find out the outcome of these transformations in terms of disintegration and/the formation of rural territorial with new features. We have adopted the historical approach to trace the historical process of demographic and spatial shifts according to a spatial - temporal approach, as well as a systemic approach that helps us to read the interactions between the all the components of the system as well as the reactions observed on the rural territorial.

ملخص

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الإرسال: 2023-01-22

القبول: 2023-05-03

الكلمات المفتاحية:

الدينامية

التراب

الأرياف

ولاية الكاف

التفاعل

المنظومة.

يمثل هذا المقال محاولة في البحث عن الديناميات الترابية التي عرفتها أرياف ولاية الكاف انطلاقا من الأرياف الجنوبية الغربية لهذه الولاية. وقد سعت هذه الورقة البحثية الى ابراز الأطراف الفاعلة في هذه الديناميات. وللتوصل الى ما آلت اليه هذه التحولات من تفكك و/ أو تشكل ترابي ريفي بملامح جديد فقد اعتمدنا المنهج التاريخي بهدف تتبع السيرورة التاريخية للتحولات الديمغرافية والمجالية وفق مقارنة مجالية - زمانية Spatio - Temporel فضلا عن المقاربة المنظومية التي تساعدنا على قراءة التفاعلات القائمة بين عناصر المنظومة. وانعكاسات ذلك على التراب الريفي.

1. مقدمة

يعتبر المجال الجغرافي "انتاجا اجتماعيا" (Fournier & Raoulx, 2003) لذلك فإن الدينامية التي يشهدها تُعد وليدة للممارسات الاجتماعية التي تخضع بدورها الى عوامل اقتصادية وثقافية وكذلك سياسية للأفراد والأسر والجماعات والمجتمعات والمؤسسات... ويتم ذلك حسب التراكم في الزمن ووفق مقياس مجالي يتدرج من الخاص الى العام أين يولد الشعور بالانتماء والتملك القانوني والعاطفي والثقافي للمجال. وهو ما يخول الحديث عن تشكل ترابي بهوية تعكس ممارسات الفاعلين الاجتماعيين وأفكارهم، ومدى قدرتهم على الفعل في المجال، أي أن التراب هو تجسيد لسلطة الفاعلين. وتبعاً لذلك فإن تشكل التراب هو تعبيرة عن اختلاف و/ أو توافق و/ أو تصادم استراتيجيات الفاعلين فيه. وفي هذا السياق يندرج الحديث عن الديناميات الترابية للأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف التابعة الى اقليم الشمال الغربي التونسي، حيث عرفت هذه الأرياف ديناميات ترابية ناجمة عن تدخل عدة أطراف فاعلة تباينت سلطتهم على المجال عبر الزمن، أثرت وبعمق في التراب الريفي.

2. الاطار المنهجي للدراسة

2.1. الإشكالية

عرفت الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف على غرار مختلف أرياف الشمال الغربي التونسي لأول مرة ظاهرة النزوح الريفي منذ ثلاثينيات القرن العشرين، وهي ظاهرة تولدت من تفاعل مجموعة من العوامل. ويعتبر استحواذ المستعمر على الأراضي الخصبة ومكننة العمل الفلاحي العامل الأكثر تفسيراً لانطلاق هذه الظاهرة. ولقد تواصلت هذه الأخيرة بعد الاستقلال الى الآن بأنساق مختلفة حسب الفترات الزمنية، خاصة في ظل تتالي السياسات التنموية التي أفضت الى تعميق اختلال التوازن الاقتصادي بين الواجهة الساحلية للبلاد والأقاليم الداخلية. أفرزت هذه الظاهرة تراجعاً واضحاً للكثافة السكانية، كما عرف المجال الريفي تحولات في آليات تنظيمه. تثير إذا هذه الورقة البحثية إشكالية رئيسية تتمثل في الدينامية الترابية للأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف. ولئن بدا النزوح الريفي المحرك الأول والأساسي لهذه الديناميات فإنه هو الآخر مرتين لمجموعة من الفاعلين الاجتماعيين. وقد حاولنا بلورة هذه الإشكالية في عدة تساؤلات منها:

- ماهي خصائص الكثافة السكانية بالأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف؟

- أي تحول عرفته آليات تنظيم المجال الريفي؟

- هل أفضت التحولات التي عرفتتها الأرياف قيد الدراسة الى تفكك ترابي حل محله تشكل ترابي بمواصفات جديدة؟

- كيف أفرز تفاعل الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف باعتبارها منظومة مفتوحة مع محيطها الخارجي تراباً بمواصفات مغايرة عن السابق سواء أكانت نتيجة هذه الديناميات تفكك أو تشكل ترابي أو جمعت بينهما؟ للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها اعتمدنا على الفرضيات والمنهجية التالية:

2.2. فرضيات البحث ومنهجيته

انطلقنا من فرضيتين للامام بمختلف جوانب هذه الإشكالية والاجابة على التساؤلات الأنفة الذكر وغيرها:

- ان الديناميات الترابية بالأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف انما هي ناجمة عن التفاعل الحاصل بين المجال الريفي ومحيطه الخارجي في اطار مجموعة من الأفعال وحلقات ردود الأفعال.

- أن حلقات ردود الأفعال لمنظومة الأرياف الجنوبية الغربية بولاية الكاف في اطار التفاعل مع محيطها الخارجي تتصف بالاجابية. وأفضت بالتالي الى تفكك ترابي يجسد انسداد للمنظومة "blocage du système"

اعتمدنا في محاولة تحليلنا لهذه الإشكالية واختبار الفرضيات السابقة الذكر على المقاربة المنظومية. واعتبرنا على هذا الأساس الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف منظومة مفتوحة في تفاعل متواصل مع محيطها الخارجي. كما استندنا الى المقاربة التاريخية للوقوف على الدينامية التي شهدتها التراب الريفي. ويعد المنهج الجغرافي المستند الى الوصف والتحليل والاستنتاج من بين أهم آليات بحثنا، فضلاً على ارتكازنا على مجموعة من المراجع المكتبية والاحصائيات المتعلقة سواء بمجال البحث أو باطاره الجغرافي الأشمل والمتمثل في ولاية الكاف وإقليم الشمال الغربي بهدف المقارنة مع مجالات جغرافية قد تكون شبيهة به أو مختلفة عنه.

2.3. المفاهيم الرئيسية

■ **الدينامية:** لقد قدم العلماء شروحا متعددة لمفهوم الدينامية. وان اختلفت هذه التفسيرات كل حسب اختصاصه فإنها تتمحور في مجملها حول فكرة التحول أو التغير من حالة الى أخرى عبر الزمن. وفي هذا السياق نقدم مفهوم الدينامية حسب المعجم الفرنسي في نسخته الالكترونية والذي قدم تفسيران. الأول "الدينامية هي الحركة في علاقة بالقوى، وهي عكس الجمود" وبالنسبة للتفسير الثاني فقد ورد كالتالي "الدينامية هي تجسيد لطاقة كبرى... فهي مرادف للطاقة والحركة أو النشاط...". (عمري، 2009/2010).

وقد عرفت الدينامية على أنها "التغيرات بتأثير قوى" (Brunet.R., 1993). بالاعتماد على ماسبق يمكن القول بأن دراسة الدينامية تتطلب البحث في التحولات والقوى الفاعلة لهذه التحولات بقطع النظر عن طبيعة التحول اذ

يمكن أن يكون سلبا أو إيجابا.

■ التراب: حسب معجم Dictionnaire de "la géographie et de l'espace des sociétés» (Lévy, & Lussault, 2003) يعد استعمال مفهوم التراب حديثا نسبيا في الجغرافيا والعلوم الاجتماعية. ويعود أول استعمال فعلي له في الانتاجات الفكرية الى سنة 1982. وحسب نفس المعجم فان التراب مفهوم متعدد المعاني. وقد استعمل في التسعينيات كمرادف لمفهوم المجال، وللمكان في الجغرافيا وخاصة في الاقتصاد والعلوم السياسية. كما يحمل مفهوم التراب حسب نفس المعجم البعد السياسي فهو تعبير عن مجال مراقب وله حدود وهو ما يتوافق مع منطق الدولة، كما يحمل البعد الاجتماعي أي أنه تملك للمجال. فمفهوم التراب اذا يجمع بين البعد الذاتي والموضوعي.

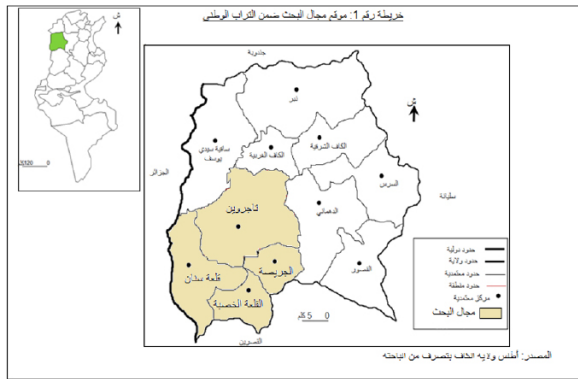
وقد عرف الأستاذ عمر بالهادي التراب على أنه " الحيز المجالي أو المكاني المشبع بالمعاني والرموز والذي يجمع بين الزمن والتاريخ. التراب هو تملك للمجال " (Belhedi, 1999) وفي موضع آخر يؤكد نفس الجغرافي على أن التراب هو «المجال الممتلك والمحدد - نسبيا- المنظم والمتمكن منه، ويمتد على البلد الى حدود الحي. للمفهوم بعد قانوني وعاطفي ومجالي ثقافي. فهو مجال معاش [...] فهو محرك الهوية. ومفهوم السلطة مكانة مركزية في الترابية. فهذه السلطة هي التي تأسس للتملك [...]». فالتراب اذا يؤسس للشعور بالانتماء والهوية. (Belhedi, 1998).

نستنتج انطلاقا من التعاريف آنفة الذكر أن استعمال مفهوم التراب عرف تدرجا في الزمن هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية فانه مفهوم متعدد الأبعاد اذ يجمع بين الموضوعي والذاتي ويؤكد على فكرة التملك. فالمجال لا يصبح ترابا الا اذا كان هناك شعور بالتملك له.

4.2. الموقع الجغرافي والخصائص الاقتصادية للمجال المدروس

يتمثل مجال بحثنا في الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف، وتنتمي هذه الأخيرة الى إقليم الشمال الغربي التونسي (خريطة 1). ويعتبر مجال بحثنا مجالا حدوديا، يتوزع على أربعة معتمديات وهي: قلعة سنان، القلعة الخصبة، تاجروين، والجريصة. يعتمد اقتصاد المجال قيد الدراسة على الفلاحة البعلية وتحديدًا تربية الماشية والحبوب. ان تأخر الري بهذه المنطقة مقابل ما يملكه من موارد "مائية سطحية تمثلت أساسا في واد سراط وأخرى باطنية تمثلت في ثلاثة موائد مائية سطحية وتسع باطنية" (غمري، 2016). وان كانت هذه "المفارقة التاريخية بين وفرة المياه وغياب تقاليد الري" (العلوي، 2020) تهم كافة إقليم الشمال الغربي تقريبا فانها تعتبر أكثر حدة في الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف اذ لم يُشرع في انجاز سد على واد سراط الا سنة 2006. ولم تتم تهيئة المنطقة السقوية حول هذا السد الا أواخر سنة 2021، والمفترض أن تغطي مساحة تُقدر بـ

4500 هكتار. ان انتشار الري بالمجال قيد الدراسة من شأنه أن يمكنه من تجاوز الهشاشة الاقتصادية (ضعف الإنتاج، هيمنة الحبوب على النظام الزراعي، وهيمنة الأغنام على نظام تربية الماشية، تواصل ظاهرة التداول الزراعي: عام بور/ عام زراعة رغم تراجعها...) التي يعانيها على مر عدة عقود، والتي تُفسر بالارتباط الشديد للأنشطة الفلاحية بالعوامل المناخية (ضعف التساقطات وتذبذبها الزمني...). بالإضافة الى الأنشطة الفلاحية آنفة الذكر التي تمثل ركيزة اقتصاد المجال المدروس فان هذا الأخير استفاد من موقعه الحدودي ليمارس مختلف أنشطة التهريب، والتي مثلت منذ ثمانينيات القرن العشرين من بين استراتيجيات التعديل الذاتي مع الأزمات التي تواجهها أرياف وسط ولاية الكاف وجنوبها وما فتئت تتدعم الى أن أصبحت الأبرز في جذب المنخرطين فيها. وتعد تجارة التهريب تعبيرة اجتماعية عن قصور السلطات عن تثمين الموارد التي تزخر بها هذه المنطقة.



ان تفاعل منظومة الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف مع محيطها الخارجي منذ ثلاثينيات القرن العشرين في إطار مجموعة من الأفعال وحلقات ردود الأفعال أفضت الى ديناميات ترابية وهو ما سنحاول ابرازه في سياق عرض نتائج هذا العمل.

3. نتائج الدراسة

3.1. كثافة سكانية ريفية ضعيفة وفي تراجع

ان ضعف الكثافة السكانية بالأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف انما هو احدى التعبيرات المجالية للهشاشة الاقتصادية التي يواجهها مجال بحثنا منذ عقود متتالية. ذلك أن هذه المجالات الجغرافية غير محظوظة اقتصاديا باعتبار ما تشهده من نقص في التجهيزات والخدمات فضلا عن ضعف إنتاجية الأنشطة الفلاحية التي تمثل ركيزة الاقتصاد لهذه الأرياف. ولقد كان تغير النظام الاقتصادي التونسي من اقتصاد معاشي الى رأسمالي دون الأخذ في الاعتبار بالخصوصيات المحلية لهذه الأرياف من المحددات الرئيسية لهذه الوضعية. لكن عوامل أخرى أفضت الى تشكل ترابي بملامح جديدة من خاصياته ضعف الكثافة السكانية وتراجعها المتواصل. فاستحواذ

(جدول 1) حيث سجلت بعض الأرياف انهيارا في عدد سكانها من ذلك أرياف معتمدية تاجروين خلال العشرية 1974-1984 (جدول 1) وكذلك أرياف قلعة سنان خلال الفترة الممتدة من 2004-2014. في المقابل تُعد أرياف الكاف الغربية حالة استثنائية مقارنة

جدول رقم 1

عنوان الجدول نسبة النمو السنوية لسكان بعض أرياف ولاية الكاف خلال الفترة الممتدة من 1975 الى 2014

الارياف حسب التقسيم الاداري للمعتمديات	1975- 1984	1994- 2004	2004- 2014
الكاف الشرقية	0.88-	0.3-	0.96-
الكاف الغربية		3.23	4-
قلعة سنان	2.30	2-	3.44-
تاجروين	6.2-	1.64-	2-
السررس	1-	0.25-	2-
الدهماني	1.65-	1.54-	1.21-
القصور	0.26	1.39-	1.79-
القلعة الخصبة	-	2-	0.86-
المجموع	1.78-	0.8-	2-

المصدر: انجاز الباحث بالاعتماد على احصائيات المعهد الوطني للإحصاء، إحصاء 1975 الى 2014

بالأرياف الشرقية الأخرى حيث سجلت نمو ايجابيا خلال الفترة الممتدة من 1994 الى 2004 في عدد سكانها بسبب ارتفاعها الاداري الى رتبة معتمدية. وما يؤكد أن هذه الزيادة ليست مرتبطة بنمو اقتصادي هو الانهيار المسجل في عدد السكان في الفترة الموالية 2004-2014 اذ بلغت نسبة التراجع السنوية ب-4%.

ان تراجع عدد سكان الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف كان له تأثيراته المجالية وهو ما يتأكد من خلال معاينة الكثافة السكانية الصافية⁽¹⁾ التي تتصف هي الأخرى بالضعف (جدول 2). ولئن كانت منخفضة وفي تراجع متواصل في جميع أرياف ولاية الكاف (خريطة 2) اذ بلغت 21.9 س/كلم² سنة 2014 بعد ان كانت 29.8 س/كلم² سنة 1994 و32 س/كلم² سنة 1984 فان انخفاضها وتراجعها يشدان في الأرياف الجنوبية-الغربية، حيث بلغت أدناها في أرياف

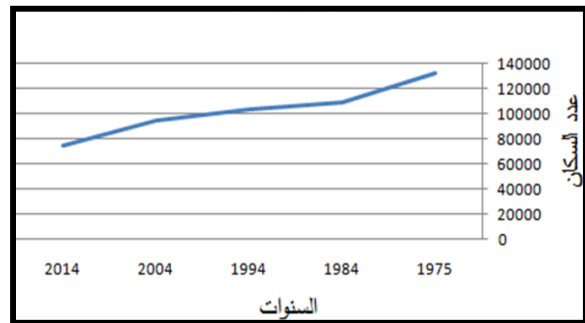
المستعمر على الأراضي الخصبة ولجوء الفلاحين الى سفوح الجبال والذي مثل ردود الفعل المجالية الأولى للفلاحين بمهام أعوان محليون "Agents locaux" بماهي استراتيجية للتأقلم والتعديل الذاتي "auto-régulation"، هذا بالإضافة الى ما عرفته البلاد التونسية في ثلاثينيات القرن العشرين من نمو ديمغرافي مرتفع تزامن مع الأزمة الاقتصادية التي عاشها العالم ومن ضمنها تونس قد ولد ظاهرة النزوح بأرياف الشمال الغربي التونسي بصفة عامة والأرياف قيد الدراسة بصفة خاصة. ان استمرار النزوح الريفي وبأنساق مختلفة حسب الفترات الزمنية كان من نتائج المجالية تراجع عدد سكان الأرياف ومن ثمة الكثافة السكانية التي ما فتئت هي الأخرى تتراجع. هذه السلسلة من الأفعال وردود الأفعال بين الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف ومحيطها الخارجي تندرج ضمن التفاعل بين المنظومة ومحيطها الخارجي. وقد أنتج هذا التفاعل تراجعا لعدد سكان الأرياف قيد الدراسة.

ينزع عدد سكان أرياف ولاية الكاف بصفة عامة الى التراجع المتواصل (شكل 1) حيث بلغ 105800 فردا حسب آخر تعداد للمعهد الوطني للإحصاء سنة 2014، بعد أن كان 130100 سنة 2004 مسجلا بذلك نسبة تراجع سنوية قدرت ب-0.98% وقد كانت هذه النسبة خلال العشرية السابقة أي بين 1994 و2004 أكثر حدة اذ قدرت ب-1.86%.

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن هذا التراجع فاق التراجع الذي سجلته الأرياف خلال الفترة 1974-1984 والمقدر ب-1.78% والذي اعتبر من قبل العديد من الجغرافيين مثل الأستاذ حافظ ستهم (ستهم، 1987) اذانا "باخلاء ريفي". وهو ما تأكد في

شكل 1

عنوان الشكل تطور عدد سكان الأرياف خلال الفترة الممتدة من 1975-2014



التعدادات اللاحقة ذلك أن نسبة سكان الأرياف لم تعد تمثل الا 37% من النسبة الجمالية لسكان مجال الدراسة سنة 2014 بعد أن كانت سنة 1974 حوالي 72% و54.57% سنة 1984 و47% سنة 1994.

لئن شهدت مختلف أرياف ولاية الكاف نموا سلبيا لعدد سكانها فان التراجع يبدو واضحا أكثر في الأرياف الجنوبية الغربية

(1) الكثافة السكانية الصافية = عدد سكان الريف / المساحة الصالحة للزراعة (كلم²)

3. 2. التشتت السكاني السمة المجالية للأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف

تُعتبر ظاهرة التشتت السكاني عموماً قديمة بأرياف تونس التلية عامة لا سيما منها التل الشمالي وبصفة أخص التل العالي ومن ضمنها المجال قيد الدراسة. ولئن كانت هذه الظاهرة مرتبطة فيما مضى بخصائص الهياكل العقارية التي كانت " قبل الفترة الاستعمارية تُعرف بأهمية الملكيات الكبرى في يد فئة حضرية مستقرة اما في تونس العاصمة بالنسبة للتل الشمالي أو في المدن الاقليمية بالنسبة للكاف وباجة" (Kassab , 1980) (بتصرف). فضلا عن ارتباطها بخصائص المنظومة الزراعية التي تقوم على الزراعات الكبرى وتربية الماشية الممتدة التي لا تتطلب تجمع السكان من اجل تهيئة المجال مثل ماهو الحال في المناطق الجافة من ذلك "بلاد نفزاوة"، فان هذه الظاهرة تدعمت مع ثلاثينيات القرن الماضي بالتوازي مع انطلاق ظاهرة النزوح الريفي وتعمقها في الفترات اللاحقة.

انطلقنا كمحاولة لدراسة ظاهرة التشتت السكاني من مؤشر التشتت الذي اقترحه "Demangeon" (ورد في , Lebeau 2004) والذي يُمكن صياغته في العملية الحسابية التالية:

$$K = \frac{E \times N}{T}$$

K = le coefficient de dispersion

E = la population des écarts, entendus au sens strict (tous les lieux habités autres que le chef-lieu qu'il s'agisse de hameaux ou de maisons isolées)

N = le nombre de ces écarts

T = la population de la commune

مؤشر التشتت = $\frac{\text{سكان المناطق غير البلدية} \times \text{عدد المراكز الريفية}}{\text{العدد الجلي للسكان}}$

م = $\frac{\text{س ر} \times \text{ع}}{\text{ج}}$

م: مؤشر التشتت

س ر: عدد سكان المراكز الريفية

ع: عدد المراكز الريفية

ج: العدد الجلي للسكان

تمكننا من احتساب مؤشر التشتت لأرياف مجال الدراسة بداية من سنة 1984 الى حدود 2014 مثلما يبرزه الجدول 3، ولئن بدت النزعة العامة للسكان تتجه نحو التجمع وهو ما يبرز من خلال تراجع قيمة مؤشر التشتت خلال الفترة الممتدة من 1984 الى حدود 2014 فإن هذا المؤشر يبقى مرتفعاً اذ بلغ 16.41 سنة 2014، مما يؤكد على أهمية ظاهرة التشتت بالمنطقة قيد الدراسة. واللافت للانتباه أن مؤشر التشتت يرتفع (جدول 3) بالأرياف الشرقية لولاية الكاف أكثر منه في الأرياف الجنوبية الغربية، وهو ما يتنافى مع

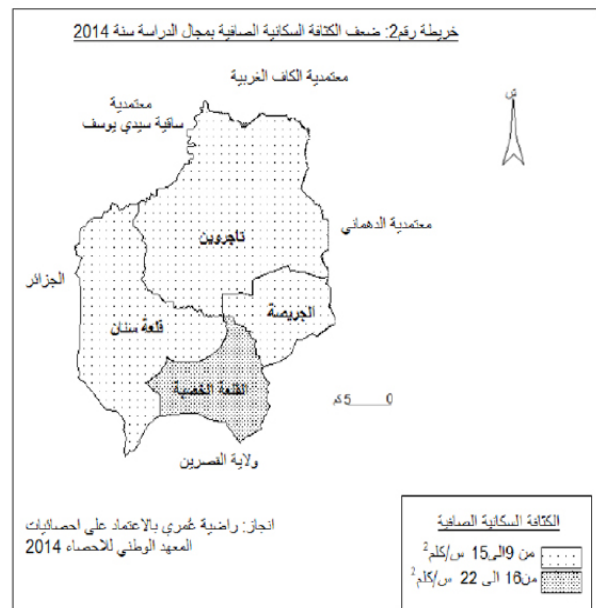
الجريصة اذ قدرت 6.8 س/كلم² (جدول 2). يُعد ضعف الكثافة من بين التعبيرات المجالية لما تمرّ به هذه الأرياف من أزمة حادة في القطاع الفلاحي البعلي ومحدودية المناطق السقوية حيث بلغت 4734 هكتارا وهو ما يمثل قرابة 30% من المساحة المروية لكامل ولاية الكاف. الأمر الذي سرع من عمليات النزوح الريفي. ولم تتمكن "تجارة التهريب التي اعتمدها عدد هام من سكان هذه الأرياف - بماهي استراتيجية للتأقلم مع أزمة القطاع الفلاحي وتأمين دخل اضافي للفلاح- من استيعاب اليد العاملة خاصة في ظل تدخل فاعلين اجتماعيين ذوي رساميل كبيرة نسبيا ومن أصول حضرية في هذه التجارة" (عُمرى، 2016).

جدول 2: الكثافة الصافية بالأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف خلال الفترة الممتدة من 1984 الى 2014

الأرياف/السنوات	1984	1994	2004	2014
تاجروين	27	20	16.7	13.4
الجريصة	-	-	8.79	6.8
قلعة سنان	27	28.46	22.8	14.9
القلعة الخصبة	31	27.4	21.7	19.9
أرياف الولاية	32	29.8	26.9	21.9

المصدر: انجاز الباحث بالاعتماد على احصائيات المعهد الوطني للإحصاء

هذا التراجع للكثافة السكانية بأرياف ولاية الكاف لا سيما منها الأرياف الجنوبية الغربية للولاية (خريطة 2) وتباينها من منطقة الى أخرى سيعمق من ظاهرة التشتت السكاني التي تعاني منها أرياف الشمال الغربي بصفة عامة وأرياف ولاية الكاف بصفة خاصة.



جدول 3

عنوان الجدول تطور مؤشر التششت بمجال الدراسة خلال الفترة الممتدة من 1984 الى 2014

السنوات	1984	1994	2004	2014
مؤشر التششت لكامل ولاية الكاف	24.31	21	19.83	16.41
مؤشر التششت بالأرياف الشرقية لولاية الكاف	14.12	10.73	11.72	9.71
مؤشر التششت بالأرياف الجنوبية الغربية	10.52	8.85	8.16	6.75

المصدر: المعهد الوطني للإحصاء

الواقع الجغرافي للمنطقة قيد الدراسة ومن أجل ذلك اعتمدنا مؤشر التششت الذي اقترحه "Livet.R" والوارد في (Cherif, 2010) والذي يُمكن صياغته في إحدى العمليات الحسابية التالية:

مؤشر التششت = $\frac{\text{عدد السكان المنعزلين}}{\text{العدد الجملي للسكان}}$	أو	مؤشر التششت = $\frac{\text{عدد السكان المتجمعين}}{\text{العدد الجملي للسكان}}$
Livet.R.1972. in Cherif.M.2010		
أو مؤشر التششت = $\frac{\text{عدد السكان المنعزلين}}{\text{عدد السكان المتجمعين}}$		

ويرى "Livet.R" "أن العلاقة بين عدد السكان المنعزلين والمتجمعين هو الأكثر تعبيراً عن الظاهرة: فإذا كان المؤشر مساوياً لواحد فإن ذلك يعني أن عدد السكان المنعزلين مساوٍ للمتجمعين وهو ما لا يمكن أن يتوافق دائماً مع الواقع الجغرافي. وإذا كان المؤشر أكثر من واحد فإن ذلك يعني أن ظاهرة التششت مرتفعة أما إذا كان المؤشر أقل من واحد فإن السكن المجمع هو المهيمن" (Cherif, 2010). ولئن كانت دراسة خصائص السكن الريفي من حيث التجمع أو التششت والتحويلات التي عرفها تقتضي توفر إحصائيات في فترات زمنية مختلفة فإن ذلك يبقى غير ممكن في ظل النقص الذي اتسمت به المعطيات التي يقدمها المعهد الوطني للإحصاء ذلك أن هذا الأخير لم يفصل بين المنعزلين والمجمعين إلا في إحصاء 1975 و1984 لذلك فإننا حاولنا تجاوز هذا النقص بالاستناد على الكثافة الصافية في العنصر السابق.

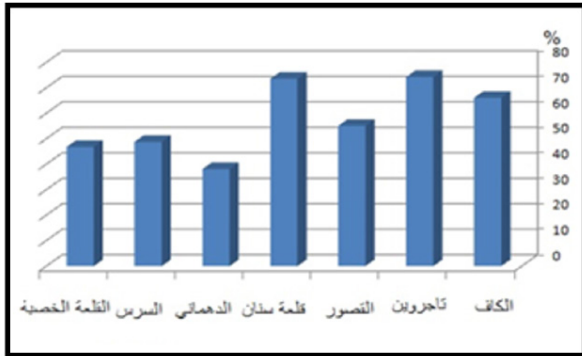
يمكن احتساب مؤشر التششت انطلاقاً من علاقة السكان المنعزلين بالسكان المتجمعين بكافة معتمديات مجال الدراسة مستنديين في ذلك إلى إحصاء 1975 إذ تبين أن هذا المؤشر يتراوح بين 0.77% و3.51%. وقد بين حساب مؤشر التششت أهمية ظاهرة التششت بمختلف معتمديات مجال الدراسة إذ فاق الواحد بجلها باستثناء في معتمدية تاجروين أين سجلنا مؤشر تششت دون ذلك (0.77). أما تعداد 1984 فقد مكنا

بالاعتماد على احتساب مؤشر التششت من تقسيم معتمديات مجال الدراسة وبعض معتمديات أخرى لولاية الكاف إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى وتضم المعتمديات التي عُرفت بأهمية ظاهرة التششت حيث تجاوز بها مؤشر التششت 1 كما تجاوزت نسبة السكان المنعزلين بها 50% وتصل إلى 74.3% (شكل 2). وتتمثل في كل من معتمدية الكاف، تاجروين،

شكل 2

عنوان الشكل نسبة السكان المنعزلين حسب المعتمديات



المصدر: المعهد الوطني للإحصاء 1984

قلعة سنان والقصور. بلغ عدد السكان المنعزلين 41951 بهذه المعتمديات أي 67.25% من النسبة الجمليّة لسكان هذه المعتمديات بينما لا يمثل السكان المتجمعون إلا 20426 ساكناً أي ما نسبته 32.74%.

* المجموعة الثانية وتضم المعتمديات التي لا يبلغ فيها مؤشر التششت 1 وهو ما يعني أهمية السكان المتجمعين. وتتمثل في كل من الدهماني والسرّس والقلعة الخصبة. بالإضافة إلى أن نسبة السكان المنعزلين تتراوح بين 38.1% و48.8% (شكل 2). بلغ عدد السكان المتجمعين بهذه المعتمديات 25156 وهو ما يمثل 56.50% من النسبة الجمليّة لسكان هذه المعتمديات في المقابل بلغ عدد السكان المشتتين بمختلف هذه المعتمديات 19367 ساكناً أي ما نسبته 43.49% من النسبة الجمليّة للسكان.

لقد شكلت كل من ظاهرة التششت السكاني وضعف الكثافة السكانية من بين المحددات المؤثرة في آليات تنظيم المجال الريفي القديمة والمتمثلة في "الدوار" إذ لم يعد بالإمكان في عدة أجزاء من مجال قيد الدراسة الحديث عن هذا الصنف من التجمعات السكانية. وقد عمق النزوح الريفي هذه الظاهرة. وأفضى إلى جانب عدة عوامل أخرى إلى تحولات على مستوى تنظيم المجال الريفي. فما هي ملامح تنظيم المجال الريفي؟ وما هي تحولاتها؟

3.3. تحولات تنظيم المجال الريفي بالأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف
ظل المجال الريفي ولفترات طويلة خاضعاً في تنظيمه لأطراف فاعلة محلية في إطار اقتصاد معاشي ومجتمع يبنّي

دواوير بالسهول. لكن على خلاف الصنف القديم من الدواوير الذي كان تكونها يخضع الى مقياس الانتماء القبلي فان الدواوير الجديدة لا تخضع بالضرورة الى هذا المقياس. ومع تواصل الأزمة الاقتصادية التي يمر بها التل العالي بشكل عام بعد الاستعمار وتدعم ظاهرة النزوح الريفي تواصل تراجع عدد الدواوير "اذ لم يعد اليوم بالإمكان في عدة مناطق من مجال الدراسة الحديث عن "الدوار" ويبرز ذلك من خلال الممارسات اليومية لسكان الأرياف اذ لم تعد تسمية الدوار هي المتداولة في اشاراتهم لاحد التجمعات السكانية وانما حل محله مصطلح اخر جديد وهو "البيت" من قبيل "بيت العبادلية"، بيت "الخمايرية"⁽²⁾ "... (عُمرى، 2016)

وقد عملت الدولة الحديثة في اطار السعي الى الحد من ظاهرة النزوح الريفي ومعالجة ظاهرة التشتت السكاني التي طبعت المجال الريفي على ترقية العديد من التجمعات السكانية الى مراكز ريفية (المجالس القروية) أو الى مراكز حضرية (بلدية) والى تجهيزها بالعديد من الخدمات الادارية والاجتماعية حيث شكلت التجمعات السكانية القديمة الأساس الذي انتظمت حوله المراكز الصغرى (Belharth, 1998). أفضى كل ذلك الى تحولات على مستوى آليات تنظيم المجال. ففيم تتمثل هذه الآليات وماهي خصائصها؟

تندرج "ولادة ونمو المراكز الصغرى Petites localités" التي مثلت السمات الأساسية للمجال الجغرافي التونسي (Belharth, 1998) في اطار سعي الدولة الى اعادة الاعتبار الى المجال المحلي من جهة وذلك اثر تأكد محدودية محاولات التنمية الشاملة. وعملها من جهة أخرى على تنظيم التراب واحكام السيطرة عليه ومراقبته. لذلك فقد مثلت المراكز سواء الحضرية منها أو الريفية النوات التي تدخلت من خلالها الدولة بتركيز العديد من الخدمات العادية التي مكنت من تقريب الخدمة الى الساكن الريفي. ومن ثمة امتلاك هذه المراكز ولو نسبيا لآليات تنظيم مجالها، وهو ما جعل منها "سمة عتبة المرور من المجال الريفي الى المجال الحضري وتترجم بذلك تحولات نوعية أساسية للمجال الجغرافي التونسي" (Belharth, 1998). وفي هذا الصدد سنركز التحليل على المراكز المحلية الريفية باعتبارها المرتبطة بسياق بحثنا. فماهي إذا خصائص هذه النوات المحلية؟

تتمثل المراكز الصغرى الريفية في المجالس القروية والتي أطلق عليها المعهد الوطني للإحصاء كذلك تسمية المنطقة الترابية وهي "أصغر وحدة ادارية في التقسيم الاداري للبلاد وقد تكون المنطقة ريفية أو حضرية" (المعهد الوطني للإحصاء، 1984). وتتوزع بشكل متساويا داخل المجال المدرّوس وقد بلغ عددها سنة 2013 ثلاثة مجالس قروية وهي: جزة (تنتمي اداريا الى معتمدية تاجروين)، سيدي أحمد الصالح (تنتمي

بالأساس على الانتماء القبلي. لذلك فان تقسيم التراب وتوطن السكان خضعا الى آليات تستجيب لهذه الخصائص الاقتصادية والاجتماعية وكذلك الطبيعية. في هذا الاطار يُعتبر "الدوار" والُدشرة من الآليات الأولى التي نظمت المجال الريفي. وقد مثل الجبل في الفترة التي سبقت الاستعمار مركزا للحياة الاقتصادية -الريفية التي كانت تعتمد على تربية الماشية. لذلك فقد تركزت "الدواوير والُدشر بالقرب من السفوح الجبلية أو المنحدرات الحادة أين توجد الغابات بحيث تمثل هذه الأخيرة مرعى للماشية ومخزون من الحطب للتدفئة واعداد الطعام" (Makhlouf, 1968) على خلاف السهول التي لم تكن موطن استقرار للسكان وذلك تحت تأثير المعطيات الطبيعية التي عُرف بها مجال الدراسة والمتمثلة أساسا في أهمية المرتفعات في مقابل قلة السهول. هذا بالإضافة الى قساوة الظروف المناخية. بدأ الجبل مع الاستعمار يفقد أهميته في الحياة الاقتصادية شيئا فشيئا لصالح السهل الذي بدأ يشهد تحولات عميقة باعتبار أن الحياة الاقتصادية للفاعلين الاجتماعيين الجدد -المعمرين- تتمحور حوله من خلال "تحوله الى مركز للأنشطة الفلاحية والاقتصادية. (Makhlouf, 1968) وقد عرف التوزع الجغرافي "للدواوير" والُدشر" تباينا واضحا داخل أرياف ولاية الكاف حيث حظيت المنطقة الشرقية والشمالية بتركز عدد هام من "الُدشر" من قبيل المعاريف، سيدي عسكر، ابّة-القصور على عكس الأرياف الجنوبية الغربية حيث لم نسجل من خلال الدراسات التي اهتمت بها مثل "عز الدين مخلوف" (Makhlouf, 1968) و مونشيكور (Monchicourt, 1913) أي وجود "لدوار"، أو "ُدشرة" واضحة المعالم. لكن مع اكتشاف الموارد الباطنية من قبيل الفسفاط والحديد بهذه الأخيرة بدأت القرى تتشكل مثل الجريصة، القلعة الجرداء (القلعة الخصبة حاليا)، قلعة سنان وسلطنة (منزل سالم حاليا) معلنة بذلك عن ظهور آليات جديدة في تنظيم المجال الأمر الذي أعاد الاعتبار من جديد للجبل بماهو مركز للحياة الاقتصادية للسكان بما أن القرى المتشكلة حديثا قد توطنت في سفوح الجبال التي أكتشف بها موارد منجمية.

وقد كان لهذه التحولات الاقتصادية تحت تأثير الاطراف الفاعلة الجديدة بأرياف مجال الدراسة انعكاسات على "الدوار" و"الُدشرة" اذ بدأ دورهما يتراجع في تنظيم المجال الريفي. ولئن شكل النزوح الريفي الآلية الرئيسية في تراجع عدد سكان "الدوار" و"الُدشرة" بسبب تردّي أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية فان تحول السهل الى مركز للحياة الاقتصادية وبروز ضيعات فلاحية تابعة للمعمرين وبناء القرى المنجمية قد أفضى الى بداية تشظي الدواوير القديمة الى عناصر محدودة العدد من العائلات لتتركز اما بالقرب من هذه الضيعات والعمل بها أجراء و"خماسة" واما العمل على استصلاح المروج الموجودة معلنة بذلك عن بداية تكون

(2) تسميات تعتمد اسم الجد الرابع تقريبا للعائلة.

جذرية اذ تراجع دور "الدوار" وبرزت المجالس القروية وهي احدى الاستراتيجيات التي اعتمدتها الدولة محاولة منها رد الاعتبار للمجال المحلي في ظل فشل سياسة التنمية الشاملة. فأفضى هذا التسلسل المترابط للتحويلات الديمغرافية والمجالية تفككا للتراب الريفي من جهة. ومن جهة ثانية أنتج ترابا ريفيا مغائرا للسابق سواء من حيث الفاعلين فيه أو من حيث المشهد الريفي. هذا التفكك الترابي الذي شهده مجال البحث يعد أحد التجسيديات للأزمة الاقتصادية التي يمر بها لذلك فان البحث عن حلول لهذا الوضع لا يمكن أن يكون خارج المستوى الاقتصادي بالتركيز على المقومات التي يملكها مجال البحث. بالإضافة الى أن ما تشهده هذه الأرياف من ضعف سكاني يعد في احدى جوانبه هدرا للثروات الطبيعية التي تملكها هذه المناطق. من هذا المنطلق فان دعم القطاع الفلاحي -عبر بعث المشاريع السقوية- ومن ثمة الساكنة الريفية باعتبار أن هذا القطاع يعد الركيزة الأساسية والوحيدة تقريبا لها يشكل احدى الحلول الممكنة لتجاوز هذا الوضع الهامشي.

تضارب المصالح

تعلن المؤلفة أنه ليس لديها تضارب في المصالح.

- المصادر والمراجع

- Belhedi. A(1999). Problématique de l'espace local. L'espace local; Developpement et aménagement n°15et16).pp69-82)
- Belhedi, A. (1998). Repères pour l'analyse de l'espace. Tunis: Cahiers du CERES,série Géographique,n 19.
- Belharth , T. (1998). Le processus de développement locale en Tunisie septentrionale. Quelques aspects du développement régionale et local en Tunisie(20), pp. 131- 155.
- Brunet.R. (1993). Les Mots de la géographie: dictionnaire critique. Reclus de la documentation Française.
- Cherif, M. (2010). Agriculture et dynamiques Territoriales dans les Marges Sud Sahéliennes, Thèse de Doctorat en Géographie Rurale. Tunis, Faculté des sciences Humaines et sociales de Tunis, Tunis.
- Lebeau , R. (2004). Les grands types de structures agraires dans le monde. Paris ; 7e édition. Paris: Armand colin.
- Makhoulf . E.Mars,(1968) Nouveau Dualisme De L'agriculture Tunisienne. R.T.S.S (n°9)
- Fournier, J., & Raoulx, B. (2003). la géographie sociale géographie des inégalités. Travaux et documents , p. 32..
- Kassab , A. (1980). Etudes rurales en Tunisie,. Tunis: publication de l'université de Tunis.
- Lévy,, J., & Lussault, M. (2003). Dictionnaire de la géographie et de l'espace des sociétés. . Paris: édition Belin.
- Monchicourt , C. (1913). La region du Haut -Tell, en Tunisie (Le Kef, Teboursouk, Mactar, Thala) : essai de monographie, These pour le Doctorat ès Lettres de l'Université de Paris. Paris: Armand. Colin.

المعهد الوطني للإحصاء. (1984). التعداد العام للسكن والسكنى. تونس.

حافظ ستهيم. (1987). الاستحواذ العقاري للسكان الحضر على الأراضي الزراعية في الجمهورية التونسية. المجلة الجغرافية التونسية(15)، الصفحات 79-39.

إداريا إلى معتمدية القلعة الخصبة) والمحجوبة (تنتمي إداريا إلى معتمدية قلعة سنان). وقد خضعت هذه المراكز لإعداد أمثلة لتهيئتها ومراجعتها تم على إثرها التدخل وتجهيزها بالعديد من الخدمات العمومية العادية من قبيل المدرسة، حمام، مركز الصحة الأساسية، دار الشباب والثقافة، فرع مكتب البريد مما أدى الي بروز المحلات المختصة في تجارة المواد الغذائية. وثمة من المجالس القروية التي بعث بها سوق أسبوعية مثل "المحجوبة" لكنه لم يتواصل نتيجة وقوعه في دائرة نفوذ سوق تاجروين بسبب قرب المسافة بين المجالين والتطور الحاصل في وسائل المواصلات. فمكنت هذه الخدمات المراكز الريفية من تنظيم نسبي لمجالها من خلال الاشعاع المحلي أي أنها توفر الخدمات لسكانها ولا يمتد اشعاعها الى الخارج.

نتبين انطلاقا مما سبق أن ما عرفته آليات تنظيم الأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف انما هو وليد لتفاعل مجموعة من الأطراف الفاعلة من داخل المنظومة أو خارجها.

4. خاتمة

ان محاولتنا لدراسة دينامية التراب بالمجال الريفي للمعتمديات الجنوبية الغربية لولاية الكاف انطلقت من فرضيتين رئيسيتين. تمثلت الأولى في ان الديناميات الترابية بهذه الأرياف انما هي ناجمة عن التفاعل الحاصل بينها وبين محيطها الخارجي في اطار مجموعة من الأفعال وحلقات ردود الأفعال. أما الثانية فتمحورت حول طبيعة حلقات ردود الأفعال لهذه المنظومة مع محيطها الخارجي والتي اتسمت بالايجابية. وأفضت بذلك الى تفكك ترابي يجسد انسداد للمنظومة "blocage du système". وقد أفضت محاولة تحليلنا في سياق هذه الورقة البحثية الى التأكد من صحة هاتين الفرضيتين ذلك أن التراب الريفي قيد الدراسة قد عرف عبر الزمن تحولات ناجمة عن الفعل الممارس من قبل الفاعلين من خارج المنظومة وردود الفعل من قبل المنظومة وما تحتويه من فاعلين اجتماعيين. وقد تمثلت هذه الدينامية في: أولا دينامية ديمغرافية مفادها تراجع متواصل للساكنة الريفية مما يعني أن هذه المجالات منفرة. وهي خاصية حديثة نسبيا اذ تعود جذورها الى ثلاثينيات القرن العشرين لم تقتصر على هذه الأرياف بل شملت كامل أرياف الشمال الغربي التونسي. ويعزى هذا التحول الى ما طرأ على المنظومة الاقتصادية المحلية والوطنية من تغييرات (الانتقال من اقتصاد معاشي الى اقتصاد السوق والانفتاح على السوق العالمية وأساسا السوق الاستعمارية الفرنسية آن ذاك...). وكان لهذه التحويلات الديمغرافية انعكاسات طبعت المشهد الريفي حيث تراجعت الكثافة السكانية وتعمقت ظاهرة التشتت السكاني. وتبعا لذلك عرفت آليات تنظيم المجال الريفي هي الأخرى تحولات

راضية عُمرى. (3 فيفري، 2009/2010). الزراعة والديناميات الترابية بولاية الكاف مثال المنطقة السقوية بنبر. 160. تونس، جغرافيا، تونس: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس.

راضية عُمرى. (17، 12، 2016). الأرياف والمدن وتشكل المجال بالتل العالي التونسي: أرياف وسط وجنوب ولاية الكاف نموذجا. صفاقس: غير منشورة.

سفيان العلوي. (أكتوبر، 2020). الرّي كرهان تنمية ترابية في سهل جندوبة. تاريخ الاسترداد 3، 20، 2022، من www.osae-marsad.org.

- كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

راضية عُمرى، (2023)، الديناميات الترابية بالأرياف الجنوبية الغربية لولاية الكاف (الشمال الغربي التونسي)، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 15، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات: 654-646.